

الإرادة لكي نُؤمِن المحاضرة ٤: فقدان الحرية

أ.ر. سي. سرول

في مُحاضرة اليوم، سُرَكِّزُ عَلَى فِكْرِ الْقَدِيسِ أَوْغُسْطِينُوسِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعِلَاقَةِ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ بِحُرِّيَّةِ إِرَادَتِنَا. مِنْ الْمُعْتَرَفِ بِهِ بَوَجهِ عَامٍّ فِي تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ أَنَّ أَوْغُسْطِينُوسَ كَانَ أَعْظَمَ لَاهُوتِيٍّ فِي الْأَلْفِيَّةِ الْأُولَى، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ زَمَانٍ. وَلِأَنَّ فِكْرَهُ عَنِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ وَالْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ كَانَ مُهِمًّا وَأَسَاسِيًّا فِي الْكَنِيسَةِ الْأُولَى، حَتَّى إِنَّهُ وَجَّهَ فِكْرَ الْكَنِيسَةِ لِقُرُونٍ تَالِيَةٍ، فَزَرْتُ تَحْصِيصَ مُحَاضَرَتَيْنِ لِشَرْحِ هَذَا الْفِكْرِ.

فِي الْمَحَاضِرَةِ السَّابِقَةِ، تَحَدَّثْنَا عَنِ بِيلاجيوسِ وَرَدِّ فِعْلِهِ السَّلْبِيِّ نَحْوَ أَوْغُسْطِينُوسِ، وَعَمَّا يُعْرَفُ بِالْبِيلاجِيَّةِ. كَمَا ذَكَرْنَا فِي حُطُوطِ عَرِيضَةٍ أَنَّ الْأَنْظِمَةَ الْلاهوتِيَّةَ الثَّلَاثَةَ الرَّئِيسِيَّةَ الَّتِي تَنَافَسَتْ مَعًا عَبْرَ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ، هِيَ الَّتِي تُعْرَفُ بِالْبِيلاجِيَّةِ، وَالْأَوْغُسْطِينِيَّةِ، وَشِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ (الَّتِي دَعَاها الْبَعْضُ أَيْضًا شِبْهَ الْأَوْغُسْطِينِيَّةِ، لِأَنَّهَا تَقِفُ فِي الْمُنْتَصَفِ بَيْنَ بِيلاجيوسِ وَأَوْغُسْطِينُوسِ).

لَا حَقًّا، سَتَتَنَاوَلُ بِصِفَةِ خَاصَّةِ الْفِكْرِ الَّذِي يُسَمَّى بِشِبْهِ الْبِيلاجِيَّةِ. لَكِنَّ بِسَبَبِ ظُهُورِهِ بَعْدَ الْجَدَلِ بَيْنَ أَوْغُسْطِينُوسِ وَبِيلاجيوسِ، سَتَتَنَاوَلُهُ بِالترْتِيبِ الزَّمَنِيِّ.

لَكِنَّ الْآنَ، سَتَتَنَاوَلُ عَمَلَ أَوْغُسْطِينُوسِ الَّذِي إِلَى جَانِبِ كَوْنِهِ لَاهُوتِيًّا عَظِيمًا، كَانَ أَيْضًا أُسْقُفَ هِيُوِ فِي شَمَالِ أَفْرِيْقِيَا. وَكَانَ مُؤَسَّسَ الْمَفْهُومِ الشَّهِيرِ الَّذِي ظَهَرَ مُجَدِّدًا خِلَالَ الْإِصْلَاحِ، وَيُعْرَفُ بِاسْمِ "سُولَا جَرَاثِيَا" (*solus* *gratia*)، أَيِ إِنَّ الْخَلَاصَ هُوَ بِالنِّعْمَةِ وَحْدَهَا.

تَتَذَكَّرُ أَنَّ بِيلاجيوسَ رَأَى أَنَّ النِّعْمَةَ تُسَهِّلُ سَعْيَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْبِرِّ، لَكِنَّهَا لَا تُحَسِّبُ ضَرْورِيَّةً. أَمَّا بِحَسَبِ أَوْغُسْطِينُوسِ، فَالنِّعْمَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ ضَرْورِيَّةً، لَكِنَّ فَقَطْ نَتِيجَةَ عَمَلِ نِعْمَةِ اللَّهِ فِينَا، نُسْتَطِيعُ التَّحَرُّرَ مِنْ حَالَتِنَا السَّاقِطَةِ وَعُبودِيَّتِنَا لِلْخَطِيئَةِ.

كَانَ أَوْغُسْطِينُوسَ مُهْتَمًّا بِحُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، وَصَنَعَ تَفْرِيقًا مُهِمًّا لِلْغَايَةِ، أَعْتَقَدُ أَنَّهُ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ نَفْهَمَهَا، حَتَّى نَفْهَمَ فِكْرَهُ. وَهِيَ التَّفْرِيقَةُ بَيْنَ مَفْهُومِ "لِيْبِرُومِ أَرِبِيْتْرِيُومِ" (*liberum arbitrium*)، وَ"لِيْبِرُوتَاسِ" (*libertas*). وَعِبَارَةُ "لِيْبِرُومِ أَرِبِيْتْرِيُومِ" تُتَرْجَمُ "الْإِرَادَةُ الْحُرَّةُ"؛ وَكَلِمَةُ "لِيْبِرُوتَاسِ" تُتَرْجَمُ إِلَى "الْحُرِّيَّةِ".

كَانَ هَذَا هُوَ هَدَفُ أَوْعُسْطِينُوسٍ مِنَ التَّفْرِيقَةِ: أَنَّهُ بَعْدَ السُّقُوطِ، ظَلَّ الْإِنْسَانُ يَتَمَتَّعُ بِجُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، لَكِنَّهُ بِالسُّقُوطِ فَقَدْ حَرَّيْتَهُ. دَعَوْنِي أَخْصَصُ بِضَعِ لِحَظَاتٍ لِشَرْحِ هَذَا بِنَبْضِ التَّفْصِيلِ.

بِإِمْكَانِنَا عَقْدُ مَقَارَنَةٍ بَيْنَ مَلَكَاتِ الْفِكْرِ وَمَلَكَاتِ الْإِرَادَةِ. نَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ كَائِنًا عَاقِلًا، لَدَيْهِ ذَهْنٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى التَّفَكِيرِ. كَمَا أَنَّهُ خُلِقَ كَائِنًا إِرَادِيًّا، لَدَيْهِ مَلَكَةٌ تُسَمِّيهَا "الْإِرَادَةُ"، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ. لَكِنَّهُ بِالسُّقُوطِ، وَبِحَسَبِ أَوْعُسْطِينُوسِ وَالْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، تَأَثَّرَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ بِكَامِلِهَا. فَقَدْ شَيْءٌ مِهِمُّ بِفِعْلِ السُّقُوطِ. عِنْدَمَا تَحَدَّثُ بُولُسُ عَنِ الذَّهْنِ، مَثَلًا، فِي الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، ذَكَرَ أَنَّ الذَّهْنَ الْبَشَرِيَّ أَصْبَحَ مُظْلِمًا. وَبِالْمُقَرَّدَاتِ اللَّاهُوتِيَّةِ، نَتَحَدَّثُ هُنَا عَمَّا يُسَمَّى بِالْآثَارِ الذَّهْنِيَّةِ (noetic effects) لِلْحَطِيَّةِ، وَقَدْ سَمَّيْتُ "noetic" لِأَنَّهَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْكَلِمَةِ الْيُونَانِيَّةِ "نُوس"، وَمَعْنَاهَا "الذَّهْنُ". إِذَنْ، يُشِيرُ هَذَا الْمُصْطَلَحُ إِلَى تَأَثِيرَاتِ الْحَطِيَّةِ عَلَى أَذْهَانِنَا. وَاسْتُخْدِمَ بُولُسُ تَعْبِيرَاتٍ مِثْلَ "مُظْلِمُو الْفِكْرِ"، الَّذِي مَعْنَاهُ أَنَّ قُدْرَتَنَا عَلَى التَّفَكِيرِ السَّلِيمِ تَأَثَّرَتْ بِفِعْلِ سُقُوطِنَا.

نَعْلَمُ أَنَّ أَجْسَادَنَا تُعَانِي مِنْ ضَعْفَاتٍ مُعَيَّنَةٍ نَتِيجَةٌ لِلْسُّقُوطِ. فَهِيَ صَارَتْ عُرْضَةً لِلْمَرَضِ وَالْمَوْتِ. لَكِنَّ الذَّهْنَ أَيْضًا ضَعْفٌ. فَلَمْ يَعُدْ تَفَكِيرُنَا نَاقِبًا أَوْ صَافِيًا كَمَا اعْتَدْنَا قَبْلًا. بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، تَأَثَّرَ الذَّهْنُ بِالتَّحْزِينِ. فَعِنْدَمَا نَكُونُ مُتَحْزِينِينَ، يُشَوِّشُ التَّحْزِينُ أَوْ الْمَيُولُ عَلَى تَفَكِيرِنَا، بِحَيْثُ لَا نَرَى الْأُمُورَ بِالْوُضُوحِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ نَرَاهَا بِهِ، لِأَنَّ سَمَحْنَا لِأَنْفُسِنَا بِالْوُقُوعِ أَسْرَى تَحْزِينٍ مُعَيَّنٍ.

أَسْتُخْدِمُ هَذَا فَقَطْ كَمِثَالٍ، لِئُذْرِكَ أَنَّ الذَّهْنَ ضَعْفٌ بِفِعْلِ السُّقُوطِ، لِذَرَجَةِ أَنَّ بُولُسَ قَالَ إِنَّ الذَّهْنَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ فِي عَدَاوَةٍ مَعَ اللَّهِ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبِيعَتِهِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَ اللَّهَ بِطَرِيقَةٍ خَلَاصِيَّةٍ بِسَبَبِ تِلْكَ الظُّلْمَةِ الَّتِي غَلَقَتْ تَفَكِيرَهُ.

لَكِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْإِنْسَانَ فَقَدَ عَقْلَهُ فِي السُّقُوطِ. فَلَا تَزَالُ لَدَيْنَا الْقُدْرَةُ عَلَى التَّفَكِيرِ، وَلَا يَزَالُ بِإِمْكَانِنَا التَّفَكِيرُ بِالْمُنْطِقِ. فَلَا يَزَالُ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ اثْنَيْنِ زَائِدُ اثْنَيْنِ يُسَاوِي أَرْبَعَةً. رَبَّمَا أَزْدَادَ الْأَمْرُ صُعُوبَةً. وَرَبَّمَا تَرْتَكِبُ أَخْطَاءً حِسَابِيَّةً أَكْثَرَ مِمَّا كُنَّا لِنَرْتَكِبَهَا لَوْ لَمْ نَسْقُطْ. لَكِنَّ مَعَ ذَلِكَ، ظَلَّتْ مَلَكَةُ التَّفَكِيرِ سَلِيمَةً، مَعَ أَنَّهَا تَأَثَّرَتْ سَلْبًا بِالْحَطِيَّةِ.

عَلَى غِرَارِ ذَلِكَ، أَرَادَ أَوْعُسْطِينُوسُ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ مَعَ أَنَّ السُّقُوطَ سَبَبَ تَلَفًا جَسِيمًا لِإِرَادَتِنَا، وَاخْتِيَارَاتِنَا، وَقُدْرَتِنَا عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَقْضِ عَلَى الْإِرَادَةِ. فَلَا تَزَالُ لَدَى الْإِنْسَانِ مَلَكَةُ الْإِخْتِيَارِ. فَإِنَّا نَتَّخِذُ قَرَارَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ، وَنُمَارِسُ إِرَادَتِنَا. فَإِنَّا كَائِنَاتٌ إِرَادِيَّةٌ تَخْتَارُ. وَإِذَا لَا تَزَالُ لَدَيْنَا الْقُدْرَةُ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ، لَا تَزَالُ لَدَيْنَا إِرَادَةٌ. وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ تَظَلُّ حُرَّةً، بِمَعْنَى أَنَّهَا لَا تُجْبَرُ أَوْ تُرْعَمُ عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ الَّتِي نَتَّخِذُهَا، مِنْ أَيِّ عَامِلٍ أَوْ قُوَّةٍ خَارِجِيَّةٍ.

إِذْنًا، يَقُولُ أَوْغُسْطِينُوسُ: "قَبْلَ السُّقُوطِ، كَانَتْ لَدَى الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ وَفَقًا لِرَعْبَاتِهِ وَمُيُولِهِ؛ وَبَعْدَ السُّقُوطِ، لَا تَزَالُ لَدَى الْإِنْسَانِ إِرَادَةٌ، وَلَا تَزَالُ إِرَادَتُهُ حُرَّةً، بِمَعْنَى أَنَّهَا حُرَّةٌ مِنَ الْإِكْرَاهِ الْخَارِجِيِّ".

لَكِنَّ، تُصِيبُنَا كَلِمَةُ "حُرِّيَّةٍ" نَفْسَهَا أحيانًا بِحَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ. فَبِئْسَ تَرَاثِنَا الْقَوْمِيَّ، نَعْتَرُّ كَثِيرًا بِمَفْهُومِ الْحُرِّيَّةِ، وَنَرَى فِي تَارِيخِنَا أَنَّ الْحَرْبَ الثَّوْرِيَّةَ كَانَتْ نِزَاعًا عَلَى الْحُرِّيَّةِ. وَنَتَذَكَّرُ قَوْلَ بَاثْرِيكْ هَنْرِي: "أَعْطِنِي الْحُرِّيَّةَ أَوْ أَعْطِنِي الْمَوْتَ". وَكَانَ تَعْرِيفُ الْحُرِّيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّامِنِ عَشَرَ هُوَ أَنَّهَا الْحُرِّيَّةُ لِلْقِيَامِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ، دُونَ إِعَاقَةِ مِنْ آيَةٍ سُلْطَةٍ خَارِجِيَّةٍ قَدْ تَمَنَعْنَا مِنَ الْقِيَامِ بِهَا.

وَفِي نِظَامِ الرَّئِيسِ رُوزْفَلْتِ، خِلَالَ فَتْرَةِ الْكَسَادِ، أَعَادَ تَعْرِيفَ الْحُرِّيَّةِ بِأَنَّهَا الْحُرِّيَّةُ مِنْ أُمُورٍ مُعَيَّنَةٍ، مِثْلَ الْخَوْفِ، وَالْعَوْرِ، وَالْجُوعِ، وَغَيْرِهَا.

مَاذَا نَقْصِدُ إِذْنًا بِكَلِمَةِ "حُرٌّ"؟ أَهِيَ الْحُرِّيَّةُ لِلْقِيَامِ بِأَمْرٍ مَا، أَمْ الْحُرِّيَّةُ مِنْ أَمْرٍ مَا؟ بِحَسَبِ أَوْغُسْطِينُوسِ، لَا تَزَالُ حُرِّيَّةُ إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ قَادِرَةً عَلَى اتِّخَاذِ الْقَرَارَاتِ وَفَقًا لِرَعْبَاتِهِ. لَكِنَّ الْإِرَادَةَ الَّتِي يَصِفُهَا هُنَا بِأَنَّهَا إِرَادَةٌ حُرَّةٌ أَصْبَحَتْ مَعَ ذَلِكَ، فِي رَأْيِهِ، فِي حَالَةٍ مِنَ السُّقُوطِ وَالْفَسَادِ، بِحَيْثُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اسْتِخْدَامِهِ صِفَةَ "حُرٌّ" لِتَعْرِيفِ الْإِرَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ، أَسْرَعَ لِإِضَافَةِ صِفَةِ أُخْرَى، قَائِلًا إِنَّ الْمَخْلُوقَ السَّاقِطَ يَتَمَتَّعُ بِإِرَادَةٍ حُرَّةٍ، لَكِنَّ الْمَشْكَلَةَ هِيَ أَنَّ هَذِهِ الْإِرَادَةَ أَصْبَحَتْ الْآنَ إِرَادَةً شَرِّيرَةً. فَتَحُنُّ لَا تَزَالُ أَحْرَارًا لِتَفْعَلَ مَا نُرِيدُ، لَكِنَّ الْمَشْكَلَةَ تَكُنُّ فِيمَا نُرِيدُهُ. فَرَعْبَاتِنَا، بِحَسَبِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، هِيَ فَقَطْ شَرِّيرَةٌ كُلَّ يَوْمٍ، مِنْ جِهَةِ أُمُورِ اللَّهِ. فَبَعْدَ السُّقُوطِ، فَقَدَ الْإِنْسَانُ كُلَّ رَغْبَةٍ فِطْرِيَّةٍ فِي طَلَبِ اللَّهِ، أَوْ إِرْضَائِهِ، أَوْ التَّفَكِيرِ فِيهِ.

هَذَا مَا يُسَمِّيهِ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ "الذَّهْنَ الْمَرْفُوضَ"، الَّذِي يُكِنُّ عِدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً وَدَاخِلِيَّةً مُجَاهَةً أُمُورِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ، بِحَيْثُ إِنْ تَرَكْنَا لِأَنْفُسِنَا، وَأَعْطَيْنَا الْإِخْتِيَارَ، لَنْ نَخْتَارَ اللَّهَ، لِأَنَّنا لَا نُرِيدُهُ.

وَهَذَا مَا صَارَ أَوْغُسْطِينُوسُ مَعَهُ فِي تَعْرِيفَاتِهِ، وَفِي تَمْيِيزِهِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْحُرَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ. فَلَا تَزَالُ لَدَى الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِخْتِيَارِ مَا يُرِيدُ، لَكِنَّ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ اللَّهَ فِي فِكْرِهِ أَوْ فِي حَيَاتِهِ، وَلِأَنَّهُ لَا يَرَعُبُ فِي أُمُورِ اللَّهِ -أَيُّ لِأَنَّهُ مَيِّتٌ رُوحِيًّا- فَهُوَ يَفْتَقِرُ الْآنَ إِلَى مَا دَعَاهُ أَوْغُسْطِينُوسُ "الْحُرِّيَّةَ". فَبِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، الْحُرِّيَّةُ هِيَ الْحُرِّيَّةُ لِتَفْعَلَ الْخَيْرَ وَكَذَلِكَ لِتَفْعَلَ الشَّرَّ. وَهِيَ الْقُدْرَةُ الْأَخْلَاقِيَّةُ عَلَى قُبُولِ أُمُورِ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ. لَكِنَّ، قَالَ أَوْغُسْطِينُوسُ إِنَّ هَذِهِ الْإِرَادَةَ السَّاقِطَةَ حُرَّةٌ مِنْ حَيْثُ امْتِلَاكُهَا الْقُدْرَةَ عَلَى فِعْلِ مَا تَشَاءُ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ حُرَّةً لِأَنَّهَا لَا تَمْتَلِكُ الْقُدْرَةَ فِي ذَاتِهَا عَلَى تَوْجِيهِ أَوْ إِمَالَةِ الْقَلْبِ نَحْوِ أُمُورِ اللَّهِ.

وَكَيْ أُبَيِّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ حَالَةِ آدَمَ قَبْلَ السُّقُوطِ وَحَالَةِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ السُّقُوطِ، سَأَكْتُبُ عَلَى السَّبُورَةِ هُنَا قَائِمَةً مِنَ الْمُصْطَلِحَاتِ اللَّاتِينِيَّةِ، لَا لِزِيَادَةِ التَّعْقِيدِ، بَلِ الْعَرَضُ مِنْ اسْتِخْدَامِ اللَّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ هُوَ التَّوْضِيحُ. وَسَنَقْتَسِسُ هَذِهِ الْقَائِمَةَ مِنْ أَوْعْطِينُوسَ.

تَتَأَوَّلُ أَوْعْطِينُوسُ أَوَّلًا حَالَةَ آدَمَ قَبْلَ السُّقُوطِ، وَقَالَ: "آدَمُ، قَبْلَ السُّقُوطِ، كَانَ 'بُوسِي بِيكَارِي' (*posse peccare*)"، وَمِنْ كَلِمَةِ 'بُوسِي' تَأْتِي كَلِمَةُ "possibility" أَوْ 'قُدْرَةٌ'. وَ'بِيكَارِي' هِيَ صِيغَةُ الْمَصْدَرِ مِنَ الْفِعْلِ اللَّاتِينِيِّ الَّذِي مَعْنَاهُ "يُخْطِئُ". فَإِنَّ قَوْلَنَا إِنَّ شَيْئًا مَا *impeccable*، نَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ بِلَا خَطِيئَةٍ. وَرُبَّمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ "Peccadilloes". وَ'بِيكَادِيلُوزُ' لَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ الْحَيَوَانَاتِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَرَكُّضُ فِي الشَّوَارِعِ لَيْلًا، وَإِنَّمَا 'بِيكَادِيلُوزُ' هِيَ الْهَفَوَاتُ الْبَسِيطَةُ. وَكَلِمَتَا الْكَلِمَتَيْنِ "إِمْبِيكَال" وَ"peccadillo" تَأْتِيَانِ مِنَ الْأَصْلِ اللَّاتِينِيِّ نَفْسِهِ.

إِذَنْ، 'بُوسِي بِيكَارِي' تَعْنِي بِبَسَاطَةٍ 'الْقُدْرَةُ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ'. مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّهُ كَانَ لَدَى آدَمَ 'بُوسِي بِيكَارِي'. كَيْفَ نَعْرِفُ ذَلِكَ؟ لِأَنَّهُ أَخْطَأَ. فَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ مُمَكِّنًا، وَإِلَّا لَمَا اسْتَطَاعَ فِعْلُهُ. إِذَنْ، قَبْلَ السُّقُوطِ، كَانَ لَدَى الْإِنْسَانِ 'بُوسِي بِيكَارِي'. لَكِنْ، كَانَ لَدَيْهِ أَيْضًا "*posse non peccare*"، وَمَعْنَاهُ بِبَسَاطَةٍ 'الْقُدْرَةُ عَلَى عَدَمِ ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ'. فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُخْطِئَ أَوْ أَلَّا يُخْطِئَ، بِحَسَبِ الْقَرَارِ الَّذِي يَتَّخِذُهُ. وَكَانَ هَذَا هُوَ التَّكْوِينُ الْأَسَاسِيُّ لِحُرِّيَّةِ إِرَادَتِهِ.

دَعُونِي أَفْجِمُ تَعْلِيْقًا فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ. فَفِكْرَةُ أَنَّ حُرِّيَّةَ الْإِرَادَةِ تَعْنِي الْقُدْرَةَ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ أَوْ عَدَمِ ارْتِكَابِهَا، نَحْنُ نَقْبَلُ، نَظِيرَ أَوْعْطِينُوسَ، أَنَّهَا كَانَتْ تُمَثِّلُ حَالَةَ آدَمَ قَبْلَ السُّقُوطِ. لَكِنْ، عَلَّمَ بِيلاجيوسُ بَأَنَّ هَذِهِ الْإِمْكَانِيَّةَ الْمُرْدُوجَةَ ظَلَّتْ كَمَا هِيَ بَعْدَ السُّقُوطِ. إِذَنْ، بِحَسَبِ بِيلاجيوسَ، جَمِيعَ الْبَشَرِ، فِي كُلِّ زَمَانٍ، لَدَيْهِمْ دَائِمًا 'بُوسِي بِيكَارِي' وَ'بُوسِي نُونَ بِيكَارِي'. وَالرَّأْيُ الْإِنْسَانَوِيُّ وَالْوَثْنِيُّ عَنِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ، السَّائِدُ فِي الْخَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ، يَطْرَحُ الْفِكْرَةَ نَفْسَهَا، حَتَّى إِنَّهُ كَلَّمَا تَحَدَّثَ النَّاسُ عَنِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ فِي مُجْتَمَعِنَا الْيَوْمَ، يَقْصِدُونَ: "لَدَيْ قُدْرَةٍ مُتَسَاوِيَةٍ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، وَلَسْتُ أَعَانِي مِنْ أَيِّ مِيلٍ أَوْ تَحْيُزٍ مُسَبِّقٍ تُجَاهَ أَحَدِهِمَا".

قَبْلَ السُّقُوطِ، كَانَتْ لَدَى الْإِنْسَانِ الْقُدْرَةُ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ وَالْقُدْرَةُ عَلَى عَدَمِ ارْتِكَابِهَا. لَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ أَمْرَانِ. لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ "*non posse peccare*". لَا أُرِيدُ أَنْ يَحْتَلِطَ الْأَمْرُ عَلَى أَحَدٍ. هَذَا مَعْنَاهُ بِبَسَاطَةٍ الْقُدْرَةُ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ مَعَ إِضَافَةِ صِيغَةِ التَّنْفِي قَبْلِهَا، مِمَّا يَعْني عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ. فَبَدِيهِيًّا، بِمَا أَنَّهُ كَانَتْ لَدَى آدَمَ الْقُدْرَةُ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ، لَا يُمْكِنُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ كَانَتْ لَدَيْهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ الْقُدْرَةُ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ وَعَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ. لَكِنْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُنَسِّبَ عَدَمَ الْقُدْرَةِ عَلَى ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ إِلَى اللَّهِ. فَاللَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُخْطِئَ، لِأَنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى التَّنْفِيدِ مَتَى أَرَادَ أَنْ يُخْطِئَ، وَإِنَّمَا لِأَنَّ رَعْبَاتِهِ لَا تَمِيلُ دَائِمًا إِلَّا نَحْوَ

البرِّ الكامل. فَهُوَ يَفْتَقِرُ إِلَى أَيِّ دَافِعٍ لِارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ. وَهَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي نَتَوَقَّعُ إِلَيْهَا فِي السَّمَاءِ. لَكِنَّ الْآنَ، إِذَا كُنَّا مُؤْمِنِينَ، لَا يَزَالُ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نُخْطِئَ. وَكَيْفَ نَعْرِفُ ذَلِكَ؟ لِأَنَّنا لَا زِلْنَا نُخْطِئُ. لَكِنَّ رَجَاءَنَا أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، حِينَ نَتَمَجَّدُ، وَيَكْتُمِلُ تَقْدِيرُنَا، سَتَيُجَدُّ الْخَطِيئَةُ، وَتُصْبِحُ أَمْرًا مُسْتَحِيلًا، بِسَبَبِ فِدَائِنَا. وَبِهَذَا، سَنَكُونُ فِي السَّمَاءِ بِحَالٍ أَفْضَلَ مِمَّا كَانَ آدَمُ عَلَيْهِ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ آدَمَ كَانَ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ "بُوسِي بِيكَارِي".

لَكِنَّ فِي هَذِهِ الْقَائِمَةِ، التَّعْبِيرُ الَّذِي أَثَارَ أَكْبَرَ قَدْرٍ مِنَ الزَّيْجِ وَالْمَتَاعِبِ فِي هَذَا الْجَدَلِ الْمُتَعَلِّقِ بِجُرْيَةِ الْإِرَادَةِ، هُوَ مَا يُسَمَّى "نُونُ بُوسِي نُونُ بِيكَارِي" (*non posse non peccare*). قَدْ يُسَبَّبُ هَذَا بَعْضَ الْخُلْطِ. فَاللُّغَةُ اللَّاتِينِيَّةُ اسْتُخْدِمَتِ النَّفْيَ الْمُزْدَوِجَ، أَيِ نَفْيِ النَّفْيِ. وَاسْتُخْدِمَتِ اللَّغَةُ اللَّاتِينِيَّةُ لِأَنَّهَا فِي رَأْيِي أَسْهَلُ فِي فَهْمِ هَذَا الْأَمْرِ. "نُونُ بُوسِي نُونُ بِيكَارِي" مَعْنَاهَا "لَا يُمَكِّنُ إِلَّا يُخْطِئُ". فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَى شَخْصٍ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ يَعِيشَ بِلَا خَطِيئَةٍ. وَهَكَذَا تَحْدِيدًا وَصَفَ أَوْعُسْطِينُوسُ حَالَةَ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ. فَنتيجةً لِلسُّقُوطِ، فَقَدْنَا بَرَّنَا الْأَصْلِيَّ، وَقَدْنَا بَرَاءَتَنَا، وَعَرَفْنَا فِي الْفَسَادِ الْأَخْلَاقِيَّ، حَتَّى أَصْبَحَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ نَعِيشَ حَيَاةً بِلَا خَطِيئَةٍ. نَعْرِفُ الْمُبْدَأَ الشَّهِيرَ الْقَائِلَ "إِيرُورِي إِسْتْ هِيُومَانُوم" (*Errore est humanum*) - "الْخَطَأُ سِمَةُ الْبَشَرِ، وَالْغُفْرَانُ سِمَةُ الْإِلَهِ". وَحَتَّى أَكْثَرَ الْإِنْسَانِيِّينَ تَفَاوُلًا سَيَتَفَقُّوْنَ عَلَى أَنَّ لَا أَحَدًا كَامِلًا. وَعِنْدَمَا نَقُولُ إِنَّ لَا أَحَدًا كَامِلًا، فَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ هُوَ "لِمَاذَا؟" لِمَ لَسْنَا نَجِدُ أَمثلةً لِأَناسٍ عَاشُوا حَيَاةً خَالِيَةً مِنَ الْعُيُوبِ وَالْخَطَايَا؟ يَقُولُ أَوْعُسْطِينُوسُ إِنَّهُ بِسَبَبِ طَبِيعَتِنَا السَّاقِطَةِ كَبَشَرٍ، لَمْ يَعدْ بِإِمْكَانِنَا أَنْ نَعِيشَ بِلَا خَطِيئَةٍ.

قَطْعًا، هَذَا وَصَفُهُ فِي صِدَامٍ مَعَ بِيلاجِيُوسُ، لِأَنَّ بِيلاجِيُوسُ قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ فَقَطْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَعِيشَ الْبَشَرُ حَيَاةً كَامِلَةً مِنَ الْبَرِّ، بَلْ فِي الْوَاقِعِ، الْبَعْضُ مِنْهُمْ أَمْكَنُهُ، وَلَا يَزَالُ بِإِمْكَانِهِ، بُلُوغُ الْكَمَالِ. لَمْ يَكُنْ هَذَا رَأْيِي أَوْعُسْطِينُوسُ. وَإِنْ أَمْكَنِي صِيَاغَةٌ وَصَفِهِ لِحَالَةِ الْخَطِيئَةِ الْأَصْلِيَّةِ بِمُفْرَدَاتٍ لَاهُوتِيَّةٍ أَكْثَرَ حَدَاثَةً، أَقُولُ إِنَّنَا صِرْنَا فِي حَالَةٍ مِنَ الْعَجْزِ الْأَخْلَاقِيَّ. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّنَا نَفْتَقِرُ، بِإِمْكَانِيَّاتِنَا الشَّخْصِيَّةِ، إِلَى الْقُدْرَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ عَلَى الْمَيْلِ نَحْوَ أُمُورِ اللَّهِ.

سَأَكْرِرُ مَا قُلْتُ. يَعْنِي الْعَجْزُ الْأَخْلَاقِيَّ أَنِّي أَفْتَقِرُ، مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي، إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى أَنْ أَخْتَارَ اللَّهَ، لِأَنِّي لَا أَرِيدُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي أَنْ أَخْتَارَ اللَّهَ. وَدُونَ وُجُودِ الرَّغْبَةِ أَوْ الْمَيْلِ، لَنْ أَخْتَارَ الْبَتَّةَ مَا لَا أَرِيدُهُ.

وَالسُّؤَالُ الْبَدِيهِيُّ الَّذِي يُثَارُ فِي الْحَالِ، وَالَّذِي طَرَحَهُ بِيلاجِيُوسُ، هُوَ: "مَهَلًا، إِذَا كُنْتُ أَوْلَدُ فِي حَالَةٍ لَا تَسْمَحُ لِي إِلَّا بِأَنْ أُخْطِئَ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يُجَابِسَنِي اللَّهُ عَلَى خَطِيئَتِي، إِنْ كَانَ مِنْ صَمِيمِ طَبِيعَتِي أَنْ أُخْطِئَ؟" أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الْمُعْضَلَةُ؟ فَكَيْفَ يُجَابِسُ اللَّهُ الْبَشَرَ بِنَاءً عَلَى مِقْيَاسٍ مِنَ الْبَرِّ يَعْجِزُونَ عَنْ بُلُوغِهِ؟ يَبْدُو هَذَا، لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، ظُلْمًا بَيْنًا. وَبِحَسَبِ رَأْيِي بِيلاجِيُوسُ، هَذَا إِهَانَةٌ لِعَدْلِ اللَّهِ. قَالَ أَوْعُسْطِينُوسُ، وَيَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِوُضُوحٍ، إِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ السَّاقِطَةَ، الَّتِي تُنْشِئُ هَذَا الْمَيْلَ نَحْوَ الْخَطِيئَةِ، هِيَ عُقُوبَةٌ عَلَى الْخَطِيئَةِ. وَسَبَبُ سُقُوطِ آدَمَ، وَكُلُّ دُرِّيَّتِهِ، فِي تِلْكَ

الحالة، هُوَ أَنَّ آدَمَ كَانَ مُمَثِّلًا لَنَا، أَيَّ كَانَ رَأْسَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ بِأَكْمَلِهِ. وَبِإِخْفَاقِهِ فِي الْإِمْتِحَانِ، يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ إِنَّهُ "بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ ... وَهَكَذَا اجْتَاَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ". فَعِنْدَمَا سَقَطَ آدَمُ، سَقَطَ مَعَهُ الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ، نَتِيجَةً دَيْنُونَةِ اللَّهِ عَلَى جِنْسٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ اَزْدَرَوْا بِسُلْطَانِهِ.

وَسَنَتَحَدَّثُ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ عَنِ آرَاءِ أُوغُسْطِينُوسِ يَبْدُو هَذَا، لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، ظُلْمًا بَيْنًا. وَبِحَسَبِ رَأْيِ بِيلاجيوس، هَذَا إِهَانَةٌ لِعَدْلِ اللَّهِ. قَالَ أُوغُسْطِينُوسُ، وَيَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِوُضُوحٍ، إِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ السَّاقِطَةَ، الَّتِي تُنْشِئُ هَذَا الْمَيْلَ نَحْوَ الْخَطِيئَةِ، هِيَ عُقُوبَةٌ عَلَى الْخَطِيئَةِ. وَسَبَبُ سُقُوطِ آدَمَ، وَكُلُّ دُرِّيَّتِهِ، فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، هُوَ أَنَّ آدَمَ كَانَ مُمَثِّلًا لَنَا، أَيَّ كَانَ رَأْسَ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ بِأَكْمَلِهِ. وَبِإِخْفَاقِهِ فِي الْإِمْتِحَانِ، يَقُولُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ إِنَّهُ "بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ ... وَهَكَذَا اجْتَاَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ". فَعِنْدَمَا سَقَطَ آدَمُ، سَقَطَ مَعَهُ الْجِنْسُ الْبَشَرِيُّ، نَتِيجَةً دَيْنُونَةِ اللَّهِ عَلَى جِنْسٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ اَزْدَرَوْا بِسُلْطَانِهِ.

وَسَنَتَحَدَّثُ فِي الْمَحَاضِرَةِ الْمُقْبِلَةِ عَنِ آرَاءِ أُوغُسْطِينُوسِ بِمَزِيدٍ مِنَ التَّفْصِيلِ.

الدكتور أ. سي. سبرول هو مؤسس هيئة خدمات ليجونير، وكان أحد رعاة كنيسة القديس أندرو (St. Andrews Chapel) في مدينة سأنفورد بولاية فلوريدا، كما كان أول رئيس لكلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College). وهو مؤلف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك "كلنا لاهوتيون" و"أدهسني الألم".